خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام

واستواء الله على العرش الذي كان على الماء
وتدبير الأمر وعروجه إلى الله في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون

قال تعالى في سورة يونس آية ٣(إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه) وقال أيضا في سورة هود (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا) وقال في سورة السجدة (الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تذكرون يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون).

ما قاله المفسرون في معاني هذه الآيات

لقد اتفق المفسرون بما فيهم الأستاذ الإمام علي أن المراد من السموات والأرض والعرش والماء معانيها الظاهرة المادية ولكنهم اختلفوا في المراد من الستة أيام. فقال بعضهم هي أيام كأيامنا هذه وقال بعضهم اليوم بألف سنة أي أنه خلق السموات والأرض في ستة آلاف سنة. وقال بعضهم المراد من اليوم الزمن الذي يحده حدث ممتاز يحدث فيه وإن كان ألوف السنين فهو ليس مقدرا بمدة معينة بل هو طور من الأطوار وحال من الأحوال أي خلقهما في ستة أطوار وأحوال.
واختلفوا أيضا في استواء الله على العرش فقال بعضهم استوى على عرشه كما يستوي الملك على سريره.وقال بعضهم العرش هو الملك أي استوى واستقام له أمر الملك وتدبيره بعد أن خلقه. وقال بعضهم استوى على العرش أي استولى على الملك. وقال بعضهم إنه يجب .التوقف عن تفسير مثل هذه الآيات.
واختلفوا أيضا في معنى قوله تعالى (وكان عرشه على الماء) فقال بعضهم أن كان موضوعا على متن الماء بلا حائل بينهما. وقال بعضهم أي كان مستعليا على الماء أي أن الماء كان تحته وهو فوقه بلا اتصال بينهما.
وقد تحيروا في تطبيق ذلك على العلم والعقل ولم يصلوا إلى نتيجة واضحة ولا إلى رأي مقنع وأطالوا في ذلك كثيرا.
واختلفوا أيضا في معنى تدبير الأمر من السماء إلى الأرض ثم عروجه في يوم كان مقداره ألف سنة. فقال بعضهم أي يدبر أمور الدنيا وشئونها ثم تعرج إليه مكتوبة في صحف الملائكة طبق ما دبرها في مدة ألف سنة لأن ما بين المساء والأرض مسيرة خمسماية سنة فيكون نزولها وصعودها في ألف سنة. وقيل أن عدد الألف غير مقصودة بذاتها بل المقصود أن ذلك يحصل في مدة طويلة. وقال بعضهم أي يدبر أمر الدنيا كلها من السماء إلى الأرض لكل ألف سنة مرة فيدبر أمر ألف سنة ثم يعرج إليه ذلك ثم يدبر ألف سنة أخرى ويعرج إليه وهكذا.
وقال بعضهم المارد من الأمر هو المأمور به من الطاعات والأعمال الصالحات والمعنى أن الله تعالى نزل ذلك مدبرا من السماء إلى الأرض ولكن لا يعمل به ولا يصعد إليه ذلك المأمور به خالصا لوجهه كما يرتضيه إلا في مدة متطاولة لقلة المخلص من العباد. أو في كل ألف سنة مرة. هذا ملخص ما قاله المفسرون في معنى هذه الآيات.

ما أفهمه في معاني هذه الآيات وفيما هو المراد من هذه
الأشياء واستدلالي على ذلك بكثير من آيات القرآن

أقول إنه كما يحتمل أن يكون المراد من السموات والأرض والعرش والماء معانيها الحقيقية المادية كما قالوا وكما فسورا فإنه يحتمل أيضا أن يراد بها هنا معانيها المجازية المعنوية لأن لفظ العرش كما يصح إطلاقه على كرسي أو مركز أو مطهر الملك المادي كما قالوا فإنه يصح إطلاقه أيضا على كرسي أو مركز أو مظهر الملكوت الروحاني المعنوي. ولفظ السماوات كما يصح إطلاقه على الأجرام العلوية المادية يصح إطلاقه أيضا على الأمور العلوية المعنوية السماوية. كالشرائع الإلهية، ولفظ الأرض كما يصح إطلاقه على الجرم الذي هو منبت الزرع والحيوان يصح إطلاقه أيضا على القلب الذي هو منبت العلم والحكمة والعرفان. ولفظ الماء كما يصح إطلاقه على المادة التي هي ومنشأ الحياة المادية الجسمية يصح إطلاقه أيضا على العلم والحكمة والدين التي هي أصل ومنشأ الحياة الروحية المعنوية.
فإذا نظرنا إلى هذه الحيثية نجد أن هذه الآيات القرآنية قد أصبحت حينئذ ظاهرة واضحة يفسر بعضها بعض ويدل بعضها على بعض. وبينا ذلك أن الله تعالى قد قال قبل آية يونس (أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا (لساحر مبين) ثم قال عقبها (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام إلخ..) فالكلام حينئذ إنما هو في مقام الوحي والتشريع للناس أي كيف يتعجبون من الإيحاء إلى رجل منهم وكيف يقولون أن ما أتى به هذا الرجل من الآيات والمعجزات والتأثير في النفوس إنما هو سحر مع أن ذلك ليس من عنده بل إن ربكم

الله لا غيره هو الذي فعل هذا فهو الذي خلق سماوات الشرائع والأديان (ص٢٧)... الستة في ستة أدوار مضت، وخلق أرض القلوب الصالحة لإنبات العلوم والمعارف والهداية. ثم استوى الآن في هذا الدور السابع الأخير على عرش ملكوته الروحاني بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم لهداية الناس ..... وكان استواؤه على العرش ليدبر الأمر حيث أنه ما من شفيع ولا رسول لا واسطة بينهم وبين خلقه إلا من بعد إذنه وقد أذن في هذا الدور لمحمد ... عجب من إرساله والإيحاء إليه ولا داعي إلى القول بأنه ساحر. هذا .... يدل عليه سياق الآية ومجراها.

ومما يؤيد أن المراد بها ذلك ذكر الشفيع هنا إذ لو كان المراد من العرش والماء والسموات والأرض معانيها الحقيقية المادية لما كان معنى من ذكر الشفيع الذي إنما يناسب الشرائع والرسل دون السماوات والأرض. ويؤيد ذلك أيضا قوله تعالى في سورة هود (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا) إذ لا معنى لجعل ابتلائنا بالأعمال واختبار أينا أحسن عملا علة في خلق السموات والأرض الحقيقية وفي كون عرش الله الحقيقي على الماء الحقيقي.

ولكن هذه العلة تناسب تمام المناسبة لخلق الشرائع السماوية في الأدوار الستة المتوالية، ولكون عرش الله الروحاني أي الدين مبنيا على ماء الحياة الروحية أي العلم والحكمة ومصدرا لها، أي إنما أوجد الله الشرائع السماوية في ستة أدوار متتابعة ليختبر أي الأمم منا أحسن عملا من الأخرى وكذلك إنما كان عرشه الروحاني وملكوته السماوي مبينا على ماء (ص ٢٨) ... الروحية ومصدرا للهداية السماوية ليبلوكم أيكم أحسن عملا أي إنما كان .... السماوي مبنيا على العلم والحكمة والعدل والقسط ليزن أعمالهم بها. و.... المعنى بهذه الكيفية كما أنه موجود في آية هود هذه فإنه موجود أيضا... آية يونس السابقة حيث قال عقبها (وعد الله حقا إنه يبدؤ الخلق .... يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم .... من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) أي يبدؤ الخلق ثم يعيده ..... أخرى أي إنما يبدؤ الله الطور والدور ثم يعيده بعد ذلك ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات في كل دور من أدوار ملكوته السماوي وكل .... من أطوار استوائه على عرشه الروحاني كل على حسب علمه الذي ... من خير ج أو شر في ذلك الخلق والطور بالقسط والعدل.

العرش في قوله تعالى: الذين يحملون العرش ومن حوله

إن مما يدل على أن المراد من العرش هو العرش الروحاني (ص٢٨) ... السماوي والملكوت الرباني قوله تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به) أي الذين يحملون عرش الدين السماوي ويقومون بأعبائه هم الذين يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به (ص٢٩) وهم .... الدين القائمون بواجباته الحاملون لتكاليفه وتبعاته وهؤلاء هم من البشر ... يحملون عروش الأديان الإلهية عند ظهورها وينصرون الرسل الداعين .... والمراد بهم هنا كبار صحابة محمد (ص) الذين حملوا عرش دين الإسلام وحملوا من حول هذا العرش من المؤمنين بمساعدتهم وقيادتهم لهم لإعلاء كلمة الدين وليس المراد من الذين يحملون العرش الملائكة.... غير البشر كما يدعي المفسرون لأن الكلام كله قبل هذه الآية وبعدها إنما هو في المؤمنين والكافرين من الناس وليس للملائكة في هذا الكلام .... ولا إشارة، ومن يطالع هذه الآيات من أولها إلى آخرها من هذه السورة ويتأمل فيها جيدا يظهر له ما قلناه ظهورا واضحا ويختفي ما قاله المفسرون خصوصا بعد الإطلاع على كلامهم في هذه الآيات واختلافهم وحيرتهم في تطبيقها على ما يقولون.

تدبير الأمر من السماء إلى الأرض ثم عروجه إلى الله تعالى في ألف سنة

إن المراد من الأمر هنا هو أمر الدين أي أن نزول القرآن من السماء إلى الأرض ثم عروجه يكون في مدة ألف سنة كما يشير إلى ذلك الحديث الآتي، وهذا هو معنى قوله تعالى في آية السجدة المتقدمة ((ص٣٠) .... الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعر ج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) فإن ذكر تدبير الأمر ثم عروجه في ألف سنة يشعر بأن ... من الأمر هنا هو الأمر الروحاني أي الدين الإسلامي الذي نزل .... السماء ثم عر ج أي ارتفع إلى الله في مدة ألف سنة كما يدل على ... قوله صلى الله عليه وسلم (إن صلحت أمتي فلها يوم وإن فسدت فلها نصف ... وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) فقد مكث أمر .... الإسلامي معمولا به مدة ألف سنة ثم أصبح الناس بعدها لا يعملون .... الإسلام ولا يطبقون أعمالهم على أحكام القرآن كما هو مشاهد .... وكما يقال (لم يبق من الدين إلا أسمه ولا من القرآن إلا رسمه) وكما ... في الحديث أيضا (بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء... ومن هم الغرباء يا رسول الله قال الذين يصلحون ما أفسد الناس) .... يدل على أنه لابد وأن يوجد في آخر الزمان من يصلح فساد المسلمين .... يجدد أمر هذا الدين ويكون هؤلاء المصلحون لفساد الناس غرباء ... أول نشأتهم كما كان أهل الإسلام غرباء في بدايتهم وقد يراد بالمصلحين ... هذا الحديث أتباع المهدي عليه السلام الذي وردت فيه أحاديث .... تدل على أنه لابد وأن يظهره الله لتجديد هذا الدين القويم وإعادته ... كان عليه من القديم حينما يريد الله أن يتجلى عليه ويجعله مظهرا.... الروحاني ومستوى لعرشه الرحماني كما جعل من قبله كذلك كما يشير إلى هذا قوله تعالى في سورة

المؤمنين (رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عبادة لينذر يوم التلاق) لأن التعبير بلفظ المضارع الذي هو للحال والاستقبال يشعر بأنه تعالى قد يلقي الروح في المستقبل أيضا على من يشاء من عباده. وكما يشير إلى ذلك أيضا بقوله (واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج) فإن هذه الآية تدل على أنه لا بد وأن يظهر مهدي المسلمين وأن يصيح صيحة الحق فيهم وأن يخرجهم مما هم فيه ويرجعهم لما كانوا عليه.
وبالجملة فإن تفسير هذه الآيات بما قلناه وتفسير السماوات والأرض والماء والعرش والأمر ورجوعه إلى الله كما بيناه ووضحناه أقرب لمعاني الآيات وأوفق بسياقها ومجراها مما قاله المفسرون فيها. وإن كان لا مانع أن يراد كلا المعنيين معا أي المعنى المادي كما قال المفسرون والمعنى الروحي كما قلناه.

فهم آخر لنا في معنى قوله تعالى (وكان عرشه على الماء)

عرفنا مما سبق أن عرش الله قد يراد به ملكه على الأرض أي مملكته الأرضية وتعرف أيضا أن كل ما على الأرض من الأحياء إنما هو من الماء كما قال تعالى (وجعلنا من الماء كل شيء حي) والمعنى حينئذ أن عرش الله أي ملكه الذي على الأرض قد كان على الماء قبل أن يخلق منه ما على هذه الأرض من الأحياء أي أن ملكه وعرشه كان على الماء الكامنة فيه كل هذه الأحياء بمعنى أن كل ما خلقه الله على الأرض قد كان في الماء فأظهره الله وأخرجه منه ونماه وفرعه ملايين الفروع وأثمره ملايين الثمرات حتى صار ملكا كبيرا أو عرشا عظيما فاستوى الله عليه أي استولى على جميع مقدراته وتصرف فيه بأنواع تصرفاته.
وعلى هذا الفهم الثاني يكون المراد من العرش، العرش المادي أي المملكة المادية، وعلى الفهم الأول يكون المراد به العرش الروحي أي المملكة الروحانية وكلا المعنيين صحيح وواقع ومعقول ومفهوم على مقتضى تفسيرنا لهذه الآيات أما تفسير المفسرين لها فهو بعيد كما يتضح ذلك ويظهر لمن يطلع على كلامهم ويريد أن يفهم ويتدبر، وعلى كل فالله أعلم بمراده.